٣ حول مشكلات الثورة والثقافة فى العالم الثالث . .

كتاب واسع المجال ، يطرح فيه الدكتور طيب تيزينى مشكلات عديدة ، وبخاصة مشكلات العالم العربى ، سياسيًّا واقتصاديًّا ، مؤكدًا أن الحلول مقصورة على الأخذ بالاشتراكية العلمية .

ولا يعنينا هنا إلاّ ما ورد عن التراث ، أو ما هو بسبيله ، وهو لا يكاد يمثل إلا جزءًا صغيرًا من كتاب يتجاوز الأربعمائة صفحة من القطع الكبير .[1] . . وإن كان الكتاب - فى جملته - يدور حول هذا الجزء ، فهو يرى : (أن عملية تسييس وتثقيف الجماهير وتكوين ثقتها بنفسها كقوة تاريخية محركة ، تعتبر أمرًا فى منتهى الأهمية والضرورة ، فهذه الجماهير المحرومة ، فى حالات كثيرة ، من الحد الأدنى الضرورى للمعاش المادى ، والخاضعة لتقلبات أمزجة الموظفين البيروقراطيين الكبار والصغار ، المتواطئين - بحدود مختلفة - مع السادة الإقطاعيين وأرباب العمل الرأسماليين . . يمكن أن تتحول فعلا إلى قوة اجتماعية هائلة ، إذا انصهرت فى بوتقة أيديولوجية وتنظيميةوسياسية واحدة متجانسة ، تتجه باتجاه الإطاحة بالسلطة السياسية والاقتصادية والأيديولوجية لأولئك الإقطاعيين والبورجوازيين الذين لا يحسون فى الحقيقة بغلبتهم وقوتهم إلا لأن تلك الجماهير بمنظماتها السياسية نعيش تمزقًا سياسيًّا وأيديولوجيًّا وتنظيميًّا شاملا وعميقًا) ص ٣٨ .

ومع ذلك ، وفى غياب وحدة التنظيم السياسى والأيديولوجى ، يمكن عمل

---

(١) ط ٣ - دار دمشق سنة ١٩٧٨ م

ما يريد الساخطون . . يمكن تسيير التظاهرات ، وشلّ نشاط المؤسسات ، وإحداث التخريب والاغتيال ، والانقضاض على مراكز الأمن والإعلام ، ثم الوصول إلى دَسْت الحكم ، وإصدار تشريعات جديدة ، والظهور بأقنعة غير الأقنعة . . وتظل القاعدة الشعبية تعانى تحت وطأة طبقة النصف فى المائة ، تحت أى اسم من الأسماء ، فالذين (يصهرون) الجماهير ليغيروا سرعان ما يمثلون طبقة مستغِلة ، ويصبح كل شىء (للحزب) ، موجهًا من الكرملين ، أو من قصر السلطان ، أو القيصر ، أو الإمبراطور .

هذه هى طبيعة السلطة غير الملتزمة بتعاليم روحية ، وبآداب أخلاقية ، فانتصار القوة لا يحول دون إرادة الطغيان ، والذين يبدءون من الصفر يستهويهم جمع الأصفار ، ممثلة فى الآلاف والملايين ، لأن الإحساس بالحرمان لا يتحول إلى قناعة ورضًا ، مهما أوتى المحروم . . فالنفس الراغبة لا يكفّها إلاّ الاطمئنان إلى أن المال (عارية مستردّة) وأن المال لا يحقق إلا المطالب الدنيا ، وهى مطالب الجسد ، ومطالب الجسد لا تقف عند حد ، فإذا تسلطت هذه المطالب على الفكر ، وأصبحت (أيديولوجيا) ، تحولت إلى نهم ، إلى مزيد من الكسب ، ومزيد من إحساس بالحرمان ، وإن تضاعفت الملايين . . وتحت تأثير هذه (الحُمّى) ترتكب أبشع الجرائم ، قتلا ، ونهباً ، وانتهاكًا للأعراض ، ومتاجرة بكل القيم ، فى صورة (رأسمالية) ، أو فى صورة (اشتراكية) .

وفى كلا المجتمعين ، تضيع الكلمة الحرة ، تموت ، أو تخنق ، أو تحاصر ، أو تزيّف ، لأن وسائل الإعلام فى يد السلطة الرأسمالية ، أو السلطة الاشتراكية ، تنطق بما تريد هذه أو تلك . وتحرّك الجماهير بحركتها ، وتدفعها إلى التسبيح بحمد جلاديها ، فإذا نشأت جيوب هنا أو هناك ، ونجحت تحت ستار الظلام ، حتى كان التغيير ، لا نجد إلا شكلاً جديدًا ، ووجهًا جديدًا ، وتظل (الغابة) يأكل قويها ضعيفها ، ويمكر بعضها ببعض .

إن من الضرورى أن تتحرر الكلمة ، حتى لا يصح إلاّ الصحيح ، وحتى تنكشف الحقائق أمام الجماهير ، فتتعرف إلى واقعها ، وتشارك فى تغيير هذا الواقع من خلال الاختيار الحر ، والإرادة الحرة .

لكن (حرية) الكلمة أصبحت مفهومًا لزجًا مقززًا ، لأنها تحولت ، كما تحول (البغاء) ، إلى معايير مصطنعة بأقلام القادرين على الكسب غير المشروع ، أو بأقلام البيروقراطيين ، من المتسلقين ، أو المتخاذلين .

وأصبح مفهوم (الطبقة) لزجًا مقززًا كذلك ، لأن هذا العامل الذى بدأ حمّالا كادحًا ، ثم صار يتاجر فى المخدرات ، أو فى تهريب العملات ، أو فى أعراض الموظفين والموظفات ، حتى امتلك الملايين ، وتحكم فى إعاشة آلاف العاملين ، وصارت له أبواق تردد شعارات الثورة والاشتراكية ، هل نعده فى طبقة العمال ، أو فى طبقة الرأسماليين ، أو البورجوازيين ؟ .

وهذا المليونير ، أمثال هنرى كورييل ، الذى احتضن الحزب الشيوعى المصرى فى الأربعينات ، أو هذا النبيل ، أمثال عباس حليم ، الذى احتضن حزب العمال ، هل نعد هذا أو ذاك فى طبقةالرأسماليين أو الاشتراكيين ؟ .

العبرة لا ترتهن بالأسماء ، لأن الأسماء لا ترتهن بالأعمال ، ولأن الأعمال لا ترتهن بالأخلاق . . والأخلاق النبيلة ثمرة روحانية ، وليست ثمرة مادية ، لأنها تعتمد على العطاء ، لا على الأخذ ، على البذل والتضحية من أجل الآخرين ، لا على النهب واستلاب الآخرين ، على الصبر والتسامح والمحبة ، لا على التمرد والنقمة والسفاح . .

لسنا فى حاجة إلى مزيد من التشريعات ، فما أطول ساحة القوانين ، وما أكثر موادها ، وما أشق التردد على قاعات المحاكم ، داخل قسم الشرطة ، فالنيابة العامة ، فالقضاء الابتدائى ، فالاستئناف ، فالنقض ، والنيابة الإدارية ، ومحكمة

القيم ، والمدعى الاشتراكى ، مجاهل ذهب فيها حمار أمّ عمرو ، (فلا رجعت ولا رجع الحمار) .

نحن فى حاجة إلى الالتزام بالصدق فقط ، صدق الكلمة وصدق العمل ، ولا يحكم الصدق إلا الضمير ، ذلك المعقب من بين يدى المرء ومن خلفه ، ولا سبيل إلى الضمير إلا بتربية روحية ، قوامها الحق والخير والجمال ، الحق فلا تجاوز ، والخير فلا أنانية ، والجمال يوفر الحب والنقاء والسلام .

ولا يتحقق هذا بالشعار الذى أعلنه برتولد بريخت : ص ٢١

إن شرخًا يقسم العالم

وهو سيبقى قائمًا بيننا

لأن المطر يسقط من فوق إلى أسفل .

لأنه شعار يعتمد على الاستهواء ، مع ظهور بطلانه . .

إن سقوط المطر من فوق أمر طبيعى ، وهو لا يؤدى إلى خلخلة اقتصادية ، إذا أحسن الانتفاع به ، عن طريق إقامة السدود ، وعن طريق الآبار ، ومع التقدم العلمى بإمكان تسيير السحب وإسقاطها .

وإذا كان المطر هو الخير الإقطاعى الرأسمالى ، ومن ثم يحدث (شرخًا يقسم العالم) ، فهو تصور خاطئ ، لأن المطر عطاء بلا من ولا أذى ، وهو عطاء عام ، لا يخص طبقة دون طبقة ، ثم إنه قليل الضرر ، كثير الفائدة ، وكثيرًا ما يأتى وقد أجدبت الأرض فيكون مضاعف الفائدة .

لكنه المنطق الثورى الذى يؤلف عبارات مشبوهة ، ويروّج لها ، ويحملها ما يشاء من مضامين . . وهو منطق الشاعر والمؤلف معًا ، إذ يصدران من منطلق واحد . ويريان كما يخيل لى ، ووفقًا لهذا الاتجاه الإلحادى – أن المطر الذى يسقط من فوق إلى أسفل يمثل (الغيبية السلفية) المسيطرة ، التى تشد القلوب والعقول والعيون فى انتظار ما تجود به ، ومن ثم فهى تدفع إلى الاتكالية والسلبية

والرِّضا بما قسم ، وكل هذا فى نظر (العلمانيين) عوامل تخلف ، تحول دون الحلول الجذرية للمشكلات التى تراكمت وتقادمت ، وزكمت الأنوف ، وأرمضت العيون ، وأغلقت منافذ الضوء .

ولا شك فى أن جمود المؤسسات الدينية الحالية ، فكرًا وعملا ، ساعد الحاقدين والساخطين على رفع هذه الشعارات ، فى وجه كل دعوة وداعية إلى الخير وهى شعارات تقوم على إشاعة الفساد ، وتخريب الذمم ، وهدم الجسور ، وطمس الحقائق .

ومن وسائلهم إلى ذلك عامل التزييف ، والمناداة بشعارات الآخرين . . فإذا كان (السلفيون) – وهم القاعدة الجماهيرية العريضة – ينادون بالعودة إلى التراث ، والحرص على إنجازاته ، سبيلا إلى البناء والتقدم ، على منهج (بداية التجديد قتل القديم بحثًا) – فإن دعاة المادية التاريخية ، والفكر الاشتراكى العلمى يرون :

التراث :

(من الضرورى أن نؤكد على أن مثقفيها – الدول النامية – لا يمكنهم أن يسهموا فى الإجابة النظرية العلمية عن مشكلات بلدانهم الراهنة والمتوقعة ، إسهامًا جديًّا خلاقًا ، بمعزل عن تناولهم لتراثهم الفكرى والحضارى العام ، واكتشاف حلقات الوحدة والتجانس بين الجوانب الإيجابية التقدمية من هذا التراث من جهة ، وبين الفكر الاشتراكى العلمى من جهة أخرى ، هذا الفكر الذى يحاولون على أساسه صياغة الحلول الفعلية الثورية لمشكلات بلدانهم ، صياغة تعتمد التحليل الموضوعى الدقيق الشامل والمجانب لكل أشكال التبلّد الأيديولوجى والنقل الجمودى الحرفى) ص ٤٣ .

وهى دعوة ظاهرها الأخذ بالمنجزات التى حققتها الدعوة الإسلامية ، على كافة

المستويات الاجتماعية والسياسيةوالثقافية والاقتصادية ، وباطنها إبراز السلبيات ونقاط الضعف ، خلال المسيرة الإسلامية ، وبخاصة فى ميدانَى السياسة والاقتصاد . ولهذا نجد التركيز على الإسراف والبذخ فى دولتى الأمويين والعباسيين ، وعلى الخلافات السياسية فى خلافتى عثمان وعلى ، وعلى حركات الخوارج والشيعة والصعاليك ، وتقديم الرسائل إلى (جامعة لومومبا) فى البابكية والحرمية وحركة الزنج والقرامطة ، وتكييف هذا كله من وجهة نظر ماركسية .

ويتطاولون على الكتاب والسنة آخذين (ما تشابه منه ابتغاء الفتنة) ، سالكين مسلك التأويل والمعنى (الباطن) ، ومحملين أفكار المعتزلة والصوفية ما ليس للمعتزلة والصوفية فى حساب ، ومن المعروف أن لكل من المعتزلة والصوفية شطحات ، فكان للماركسيين من وراء هذه الشطحات شطحات ، حتى ينفذوا إلى قلوب العامة وأنصاف المثقفين بالزيغ ، وإلى عقولهم بالضلال ، وحين يتشر الفساد يسهل القياد .

إنهم لا يدرسون التراث إلاّ من واقع النيل منه ، والتشهير به ، لأنهم يرفضون كل ما عدا الخط الماركسى الذى يدينون له ، ويدينون به .

يرفضون (أن يبحث سكان ومفكرو بلدان تلك المجتمعات - النامية - عن نظرة جديدة لا هى اشتراكية ولا هى رأسمالية ، وعن طريق فى التقدم ، لا هو اشتراكى ولا هو رأسمالى) ص ٤٣ لأن هذا (يعنى ، أولا وقبل كل شىء ، إبعاد شعوب هذه المجتمعات عن الطريق الصحيح الممكن ، الطريق الاشتراكى ، حلال مشكلاتهم الاجتماعية القومية) ص ٤٤ .

مع أن الاشتراكية العلمية لا تؤمن بالقوميات ، لأنها تدعو إلى الأممية أو الدولة العالمية ، وقد قضت أو حاولت القضاء على القوميات ، فى إطار الاتحاد السوفيتى ، لكنها دعوة مرحلية فى الأرض العربية ، سرعان ما تأخذ طريقها إلى المسخ والقضاء على دعاة القومية ، كما هو حادث فى اليمن الجنوبى .

وهم يرون (أنه لا توجد اشتراكية غينية أو تنزانية أو عربية ، بل هناك طرق غينية وتنزانية ، وعربية ، إلى الاشتراكية ، وأن هذه الطرق ليست سوى تشعبات تنطلق من الاشتراكية العلمية) ص ٤٤ .

ومع أن هناك صراعات حادة – على مستوى الحزب – بين الماوية واللينينية ، وعلى مستوى الوطن ، بين روسيا ويوغسلافيا ورومانيا وإيطاليا ، وبين الصين وفيتنام وكمبوشيا ، بل وداخل الوطن الواحد ، كما هو الحال فى الصين وكمبوديا وأفغانستان واليمن الجنوبى .

وذلك لأن الاشتراكية ليست إلا دعوى سياسية اتخذت من المذهب الاقتصادى وسيلة إلى السلطة فلما دان الأمر للينين أكلوا التروتسكيين ، وجاء ستالين فقضى على عشرة ملايين من مائة وعشرين ، وجاء خروشوف فحارب الستالينية ، وجاء بريجنيف فحارب الخروشوفية ، وهكذا (كلما جاءت أمة لعنت أختها) ، لأن الهدف هو تسليط الأضواء على عصابة النصف فى المائة ، تحت أى شعار من الشعارات .

فإذا قيل : (إن إقامة تحالف طبقى عالمى مع بلدان النظام الاشتراكى أصبح له فى واقع تلك البلدان أكثر من مبرر) ص ٤٥ أدركنا أهمية البلاد النامية المتخلفة للبلدان الاشتراكية المتقدمة لأن روسيا – حسب الإحصاءات العالمية – أكبر مورد للسلاح ، فهى تحل مشكلات الدول التى تدور فى فلكها ، أو التى تمد يدها إليها عن طريق السلاح فى مقابل ما تملكه الدول الفقيرة من منتجات أولية.وهى – فى الدرجة الأولى – زراعية ، بمعنى أنها تستولى على اللقمة من أفواه الجياع ، وتعطيهم أسلحة غير متطورة ، لتحارب هذه الدول بعضها بعضا ، حتى تزداد حاجتها إلى السلاح ، أو ليقتل أبناء الدولة الواحدة بعضهم بعضًا ، كما هو حادث بين اليمن الشمالى والجنوبى ، وبين أثيوبيا وأرتريا والصومال ، وكما هو حادث فى أفغانستان وكمبوديا ، وأوغنده وأنجولا والصحراء المغربية .

ولا غرو أنه ما من بلد فى أوربا وآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية أخذ بالحل الاشتراكى إلا وعانى معاناة اقتصادية ، لا سبيل إلى تجاوزها فى الواقع القريب .

ومع هذا فإن العمل الماركسى لا يفتأ يَهِم بأن (عقد أوثق الصلات بين تلك المجتمعات وبلدان المنظومة الاشتراكية شرط مكمل لعملية التحرر القومى والتقدم الاجتماعى فيها) ص ٤٦ .

(وبالطبع ، فإن التبادل العلمى الحضارى بيننا وبين البلدان الاشتراكية والصديقة سوف يَختَزِل الكثير من الجهود أمام إنساننا العربى الجديد فى عملية استيعاب لقضايا التقدم ، نظريًّا وعمليًّا) ص ٧٩ .

مع أن الواقع المرير يقول بأن الذين يدرسون فى (جامعة لومومبا) وغيرها من الجامعات الاشتراكية لا يتلقون المعرفة ، على وفق المناهج الأوربية ، ولكن على أساس ما هو مرسوم لهذه البلاد النامية ، وفى إطار أن تظل تدور ولا تكف عن الدوران فى هذا الفلك (الاستعمارى) الجديد .

لقد التقيت فى جامعتى بغداد وعدن بكثير من المتخرجين فى المعاهد الاشتراكية ، وسمعت منهم ومن زملائهم عنهم مما يذكر المثل العربى (تسمع بالمعيدى خير من أن تراه) .

ولا شك أن فى بعض الجامعات الأوربية والأمريكية تزييفًا لشهادات أبناء البلاد النامية ، لكننا لسنا فى معرض الاختيار بين الوجه الأحمر والوجه الأزرق ، لأننا نريد أن نصدق مع أنفسنا ، فلا نلبس أقنعة الآخرين ونضيع فى مواكب الكرنفالات ، بعقول خاوية ، وبطون ضاوية .

إننا فى حاجة إلى الأخذ بمنهج البحث العلمى : ملاحظة واستقراءً وتركيبا وفرضًا وتحقُّقًا ، واقتراح حلول ، و (أن يكون الباحث قادرًا على اقتحام حقول بحث جديدة ، والتوغل فيها ، دون أن يتقيد ببعض النصوص المنهجية تقيدا حرفيًّا ، يسبغ عليها طابع القداسة والأسطورية) ص ١٠٩ .

أجل ، دون قداسة وأسطورية ، فالدين لا يلقى أدنى ظلال على مناهج البحث ، وتَرك الحرية الكاملة للدارسين ، كما سبق أن تناولنا ذلك مفصلا [1] وإذا كان من أنبياء الله صانع السفينة ، وصانع الدروع السابغات ، ومسيِّر الريح ، ومبرئ الأكمه والأبرص ، ومحيى الموتى ، بإذن الله ، وإذا كان الله يأمرنا ، والأمر يحمل طابع الإلزام : انظروا فى أنفسكم ، انظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وسخر لنا الأرض والجبال والشمس والقمر والنجوم والرياح ، فنبدع – فيما سخر – ما شاء لنا وأمكن ، ولا يستوى الذين يعملون والذين لا يعملون ، ومن ثم كان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، من المهد إلى اللحد ، دون حدود ، ولوكان فى أقصى الأرض ، ودون قيود على من جاء به ، ولوكان كافرًا .

بهذه الحرية المطلقة ، فتح الدين أمامنا كل الآفاق ، لنأكل من طيبات الرزق ، ونأخذ زينتنا عند كل مسجد ، ونعمل للدنيا كأننا نعيش أبدًا ، ونعدّ لأعدائنا ما استطعنا من قوة .

ومن ثم تتهاوى الدعاوى الباطلة التى تقول : إن (المادية تنظر إلى العالم كما هو ، دون أية إضافة غريبة ، وهذا يكون طبعًا خطوة أساسية وضرورية على طريق معرفة هذا العالم ، والمثالية تحاول إعطاءنا صورة ما عن العالم المادى ، ولكن صورة مشوهة ، فهى لا تنظر إليه كما هو ، وإنما انطلاقاً من «إضافة غريبة» عنه) ص ١٢٣ / ١٢٤ .

فإذا كانت (الإضافة الغريبة) أن الكون من خلق الله ، وأن كل شىء مقدر فى علم الله وإرادته ، فإن هذه (الإضافة الغريبة) لا تشوه صورة الكون ، ولا تحول دون العالِم (المنكِر) وعلمه ، كما لا تحول دون العالم (المؤمن) وعلمه ، بل إنها تقدم للعالِم (المؤمن القدرة النفسية على الإخلاص لعمله الذى هو هبة من

---

(١) انظر ص ٧٢ ومابعدها .

الله ، والذى هو سبيل إلى معرفة الله ، والتاريخ يؤكد أن نسبة العلماء الملحدين إلى العلماء المؤمنين لا يكاد يتجاوز النصف فى المائة . نفس نسبة الذين يعيثون الفساد فى الأرض ، إلى جانب الخيِّرين الحريصين على سلامة المجتمع ، وإن كان أثر النصف فى المائة أوضح ، لأنه أكثر إلحاحًا ، وأكثر ترويجًا ، وقُبح الشر والخوف منه يزيد من انتشاره ، أو من انتشار الحديث عنه . . ولو أننا لجأنا إلى الوسائل البدائية لحصر المفسدين فى الأرض لما تجاوزوا الواحد فى الألف ، مع تنوع مظاهر الفساد ، ومع ذلك نقول : (ظهر الفساد فى البر والبحر) بسبب أثره البالغ على المجتمع ، وبسبب الخوف على الأموال والأنفس والثمرات .

ومن أثر الفساد وخطورته ظاهرةالتعميم التى تصاحبه ، كأن نقول : (بأن المادية تشكل فلسفة الطبقات الاجتماعية التقدمية فى التاريخ ، بينما المثالية لعبت دور فلسفة الطبقات الرجعية فى التاريخ . . وأن فلسفة ما ، حينما تتحول إلى سلاح فكرى فى أيدى طبقة اجتماعية منهارة ، تفقد قيمتها المعرفية . . وأن المثالية تمارس وظيفة أيديولوجية تقتضيها الرؤية الفكرية الأيديولوجية العامة للطبقات الطامحة إلى كبح التقدم الإنسانى) ص ١٢٤/ ١٢٥ .

على حين نجد (المثالية) – فى صورتها السامية – ممثلة فى الديانات السماوية التى عملت وتعمل من أجل رفع المعاناة عن المظلومين والمستذلين ، والتاريخ يشهد بأن أكثر التابعين الأولين لأصحاب الرسالات كانوا من المقهورين المُستعبَدين فى الأرض ، وهم الذين ضحّوا ويضحون فى سبيل إقامة الدعوة السماوية واستمرارها .

ولو أن الديانة السماوية ظلت (سلاحًا فكريًّا فى أيدى طبقة اجتماعية) ماكان للطبقة أن تنهار ، وماكان للديانة أن (تفقد قيمتها المعرفية) .

وإذا كان (التاريخ المادى) يحدّث بالمنجزات الحضارية الباهرة التى نهضت بها أمة عربية طال حصارها فى الصحراء ولم تنفتح أمامها الآفاق إلا بالدين ،

فحققت أبلغ تقدم علمي وصناعي وزراعي ، شقت الطرق والقنوات ، وأقامت السدود ، وشيدت المدن ، وبَنَت المدارس ودور الكتب والبيمارستانات ، ورفعت القصور ودور العبادة ، وأنشأت البساتين ، وأزهرت الآداب والفنون ، وأقامت الترسانات المسلحة برًّا وبحرًا ، وسيّرت جيوش الأمن والأمان ، باسم ربّها ، إلى أقصى مدى ، بين بحر الصين وبحر الظلمات . فأى (كبح للتقدم الإنسانى) كما يزعم هذا الواهم بكذبه ، حتى يجد من يصدقه ؟ .

يقول (لقد عبر ماركس عن فلسفته هذه بأنها « رأس » الطبقة الكادحة ، كما أن الطبقة الكادحة قلب الفلسفة ، وتحقيق الفلسفة يعنى انتصار هذه الطبقة . . فهى لم تتقوقع فى برج عاجى ، بل طرحت نفسها على أنها أداة فعّالة فى عملية تحويل المجتمع الإنسانى تحويلا علميًّا ثوريًّا) ص ١٣٤ .

ولو أننا صدقنا هذا القول ، الذى يكذبه التاريخ المادى ، كما سجله بسترناك فى (دكتور جيفاجو) وألكس تولستوى فى (درب الآلام) – لكان لنا أن نقول : إن هذا الوصف ينطبق على كل الديانات كما ينطبق على الفابية والسان سيمونية والناصرية ومبادئ حزب البعث إلى آخر هذه المحاولات الدنيوية لعلاج المشكلات الإنسانية،لكن العبرة ليست بالمناهج التى ترسم،بل بالمدى الذى تصل إليه فى تحقيقها .

ولو أننا أخذنا بشهادة بسترناك وتولستوى وهى شهادة وثائقية ، من معاصرين مؤيدين للثورة الاشتراكية ، مراقبين من قبل عيون ستالين .. لحق لنا أن ننكر على الاشتراكية أن تكون ذات صلة برأس الطبقة الكادحة أو بقلبها ، فقد مدت الثورة يدها إلى كل العصابات والخارجين على القانون ، واستخدمت كل وسائل الغدر والخيانة والتخريب والإبادة ، من أجل أن تنتصر ، وحين انتصرت اختلف مؤيدوها وتصارعوا ، وراح ضحية الصراع ملايين الأبرياء ، بالإضافة إلى عشرين مليونًا ضحت بهم الثورة على مذبحها ، إبّان الحرب الأهلية ، ولاتزال الثورة – بعد

خمسة وستين عامًا من انتصارها تحكم البلاد حكمًا إرهابيًا ، ولاتزال غير قادرة على توفير لقمة الخبز ، من خلال الطوابير ، إلا عن طريق بيع أسلحة الدمار لشعوب العالم الثالث من أجل الاستيلاء على مقدرات حياتها ، فأى رأس وأى قلب ينهض بكل هذه المخازى ؟ .

إن بريجينيف لم يصل إلى الحكم إلاّ من خلال الإستيلاء على ثروات أذربيجان (الأرض البكر) ، كما يقول ، ومن خلال سلب هذا المجتمع الإسلامى كل مقومات حياته الروحية والمادية . فهل هذا هو فعل (النخبة) العصابية ، أو فعل (الطبقة الكادحة) ؟ هل هذا ثمرة النزول من (البرج العاجى) أو ثمرة العيش فى الكهوف) والأوكار ؟ .

ومع ذلك يزعم الأستاذ الجامعى أن (الفلسفة المادية الجدلية) كانت (كنتيجة لتراث الإنسانية التقدمى كله . وكنتيجة تمثلها لهذا التراث بشكل عميق) ص ١٣٦ .

إنه يزعم أن (الفلسفة المثالية الموضوعية مثلها مثل التصورات الغيبية الأسطورية ، ترفض القول بأن عالمنا يمكن تغييره لصالح الإنسان الكادح ، كذلك الفلسفة « المثالية الذاتية » تسخر من الناس الكادحين ، الطامحين إلى تحطيم بؤسهم الاجتماعى والقومى ، فهى ترى أن ليس لهذا البؤس من وجود حقيقى ، إنما الحقيقى هو « الأنا » أو الذات) ص ١٣٨ .

فمن أين جاء بهذه الأحكام ، مع أن قوام « المثالية » ، موضوعية وذاتية ، هو الإيثار ونكران الذات ؟ .

إن المثالية تقوم - فى أساسها - على الارتباط بالخالق الذى (يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) ، وأن (المال مال الله) ، ولا مبرر لأن نبخل على المحتاجين بمال الله الذى آتانا ، ومن الواجب أن يكون فى هذا المال (حق معلوم ، للسائل والمحروم) دون منٍّ أو أذى ، فلا قيمة لصلاة (من يُراءون ويمنعون الماعون) إن الذى (يدع

اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) إنما يكذب بالدين ، لأن الصدقات فريضة من الله (للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله ، وابن السبيل) .

تشريع كامل ، (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) (تنزيل من الرحمن الرحيم) ، وليس تشريع الانتقام لشعب يعيش فى (الجيتو) [1] يتعزى بدعوى أنه شعب الله المختار ، وأن الله ما خلق غيره من الشعوب إلاّ لخدمته ، كما خلق الحيوانات ، ومن هنا كثر عدواته ، وكثر الاعتداء عليه ، فكان التلذذ بدعوى الاضطهاد ، وليس تشريع الانتقام لأخ قتله القيصر[2] ، والحكم بالإعدام يلاحقه ، أو لوجود طويل بالمنفى ، محرومًا من الأهل والوطن . .

ليس تشريع الحالات المرضية الطارئة ، إنما هو تشريع الرحمة والعدل ، بل الرحمة قبل العدل .

تشريع (عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا) .

تشريع (الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) . .

تشريع الثواب والعقاب ، (كل نفس بما كسبت رهينة . . وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا) .

تشريع (الكلمة الطيبة صدقة) ، (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) ، (ادفع بالتى هى أحسن) ، «ادفع السيئة بالحسنة تمحُها ، وخالِقِ الناس بخُلُق حسن » .

---

(١) إشارة إلى أن الماركسية فكر يهودى .

(٢) إشارة إلى لينين

ليس تشريع أفران وسراديب الإعدام ، ومن ليس معنا فهو علينا ، وإنما هو تشريع «من قال لا إله فقد عصم منى دمه وماله» ، (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) . (وتحيتهم فيها سلام) (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا ، فلهم أجرهم عند ربهم) .

تشريع (من عفا وأصلح فأجره على الله) .

تشريع شعاره (بسم الله الرحمن الرحيم) ، السلام عليكم ورحمة الله ، ومجتمعه قائم على التعاون والتضامن والتحاب ، فلا مخاصمة ، ولا مدابرة ، ولا وشاية ، ولا غيبة ، ولا نميمة ، ولا أجهزة سرية ، ولا وسائل تصنّت ، ولاأخذ بالشبهة ولا غسيل مخ ، لأنه (الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) ، (كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا) ينصرُ بعضه بعضًا ، القوى ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف قوى حتى يؤخذ الحق له ، والحاكمُ مُطاع ما أطاع الله ورسوله،فإذا انحرف فلا طاعة له ، وعلى المجتمع تقويمه .

هو تشريع الفطرة والطهارة والقوة ، «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير» . (قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ، «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» .

فمن أين (السلبية والخنوع والتبرير الاستعبادى والحتمية الطبيعية الميكانيكية) ؟ ص ١٥٤ .

ألأن هناك إيمانا بإله خالق (يمسك السموات والأرض أن تزولا) ، تكون الجبرية الغيبية الغائبة ، و (ليس هناك تطوّر) ، لأن (هناك إرغامًا مبدئيًا على أن يسير كل شيء ضمن مسار محددة طبائعه وآفاقه) ؟ ص ١٥٣/ ١٥٤ .

وهل ينكر عاقل أن الكون يسير وفق قوانين إلهية ، لا تخضع للمصادفة ، ولاتنتج عن (حتمية طبيعية ميكانيكية) ، دون تدبر (وكلٌّ فى فَلَك يسبحون) ،

(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار) ، (والقمر قدرناه منازل) (والشمس تجرى لمستقر لها) ؟

هل ساءل الدكتور نفسه عن نفسه ، غرائزها ومواهبها وملكاتها ؟ هل حدّث نفسه عن السر من وراء اختلاف المواهب والأشكال عند الإخوة ، واختلاف الألوان والعطور عند الأزهار ، واختلاف الطعوم والقيم الغذائية عند الثمار فى مزرعة واحدة ؟ .

هل (الحتمية الطبيعية الميكانيكية) تفرق بين الطاووس والغراب؟ بين شجرة الليمون وشجرة البرتقال ؟ بين الضفدع والسرطان ؟ بين الحرباء والثعبان ؟ بين الأبله والحكيم ؟ .

إن الدكتور يقول : (فما لا شك فيه أن هناك ضرورة ميكانيكية تسود العالم الطبيعى) ص ١٥٥ . فمن أين كان الاختلاف مع وحدة البيئة ووحدة المؤثرات ؟

ويقول : (فالحادث الاجتماعى ، كالثورة مثلا ، يتم بالطبع حينما تتوفر شروط موضوعية معينة اقتصادية واجتماعية وتكنيكية بيد أن هذا غير كاف ، ذلك لأن الثورة بالأصل من صنع الناس الاجتماعيين ونتيجة لفعاليتهم) ص ١٥٥ .

وهذا كلام جيد حسب الظاهر ، أو حسب النظرة العامة ، لأن الثورة بعواملها الاقتصادية والاجتماعية والتكنيكية – قد يصيبها الإحباط والإحاطةبالثائرين ، لمجرد خلل أصاب ساعة قائد الثورة ، فاضطرب التوقيت ، لمجرد انقطاع الحرارة عن جهاز التليفون ، لمجرد إصابة القائد بالإسهال ، لنزوة لعبت برأس أحد الرجال فخان الأمانة ، إلى ما لا يحصى من هذه الأحداث الصغيرة غير المتوقعة . . وعند ذلك يصبح الثوار مجموعة من المجرمين ، تعلق لهم المشانق وينكل بذويهم وأهليهم ، بدل أن ترفرف لهم الأعلام وتدق الطبول ، وتقام التماثيل ،

والدكتور يعترف بأن (فى المجتمعات ، ماقبل الاشتراكية ، يتم التطور الاجتماعى فى الخط العام بالرغم من الناس الموجودين فيها) . لكنه يعلل ذلك بأنه

(لم يكن لها أن تنتج نظرية علمية ثورية خاصة بها ، قادرة على اكتشاف القوانين الأساسية لحركة التطور الاجتماعى والطبيعى) ص ١٥٦ . مع أن النظرية الماركسية كانت وليدة مجتمع رأسمالى ، وكان الظن أن تجد طريقها إلى التطبيق بين عمال المصانع الألمانية أو البريطانية فإذا بها تنمو فى الأرض الروسية ، على غير ماكان يتوقع صاحب النظرية ، بمعنى أن النظرية سبقت التطبيق ، وأن المجتمع قد لا ينتج نظرية تطويره ، لأن هناك عوامل لا تكون فى الحسبان تنشأ كما تنشأ الريح ، وتتحرك كما تتحرك السحب ، وتسقط الأمطار حيث لا يشتهى الزارعون .

إن الفكر الاشتراكى ليس وليد مجتمع اشتراكى ، وإنما هو وليد مجتمع طبقى ، لأنه ثمرة الإحساس بالاضطهاد ، وهذا الإحساس ينشأ فرديًّا ، ثم يتحول إلى شعور جماعى .

وقد ينشأ فكر مضاد للاشتراكية ، نتيجة قسوة وتجبر المتسلطين ، كما يحدث الآن فى بولندا وفى الصين وفى الاتحاد السوفيتى ، وكما حدث فى المجر وتشيكوسلوفاكيا ، ثم وأدته دبابات الجيش الأحمر .

(وفى المجتمع الاشتراكى نفسه تتحول تلك النظرية العلمية إلى اللولب الفكرى الكبير المحرك والمنظم للحياة الاجتماعية والعلمية والاقتصاديةوالأخلاقية والجمالية) ، ص ١٥٧ . وكذلك الشأن مع أى نظرية اقتصادية تأخذ طريقها إلى التنفيذ ، مع اختلاف فى الدرجة طبعاً ، لكن شتان بين نظرية مقصورة على نشاط إنسانى محدد ، ودين عام شامل لكل ألوان النشاط الإنسانى ، روحيًّا وماديًّا .

ولهذا كان من العبث أن نقول : (إن الجبرية الغيبية – الدين فى رأيه – تؤدى بشكل رئيسى إلى سلخ الإنسان عن الواقع العيانى المشخص ، المتسم بالبؤس والاغتراب وشدّه إلى ما وراء الواقع) ص ١٥٨ ، مع أن نصوص التشريع الإسلامى ، قرآنا وسُنة ، وفيما جاء عن الصحابة والتابعين والمجتهدين من العلماء – تدعو إلى العمل وتحثّ عليه ، وتنظمه مزارعة ومتاجرة ومضاربة ومؤاجرة ،

وتصنيعًا وتطبيقًا وتعليمًا ، إلى آخر ألوان النشاط الإنسانى ، حتى يتسنى الرخاء الذى يحقق التمتع بالطيبات من الرزق . . ولقد اقتضت حكمة السماء أن يكون الرسل والأنبياء من الفقراء ، ليكون إحساسهم بقسوة الحرمان حربًا على الفقر وانتصارًا للفقراء . . وهل كانت الزكاة من أركان الدين الخمس إلا لمحاربة الفقر؟ وهل كان الصوم من أركان الدين الخمس إلا لمحاربة الفقر؟ وفيم كان حرب المرتدين ، وقول أبى بكر : (والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه) ؟ أليس هو الزكاة التى تنفق على المحتاجين؟ وما الهدف من قول عمر ، فى عام التضامن : (لو امتد بى الأجل ، لأخذت من فضول أموال الأغنياء ورددتها على الفقراء) ؟ ولماذا قال الإمام علىّ : (لو تمثل لى الفقر رجلاً لقتلته) ؟ وإلامَ يدعو أبو ذر الغفارى بقوله : (عجيب لمن لا يجد القوت فى بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه) ؟

أهذا هو (الانسلاخ عن الواقع الإنسانى العيانى المشخص) ؟

أنطلق سهامنا عن يمين وشمال ، ليقال : إننا ثوريون؟

كيف نُدين الطبقة البورجوازية الجديدة لأنها (بحاجة إلى إخضاع الطبيعة والمجتمع لحاجاتها ومطامعها الشاملة وهى تحاول تطويع العلم والفكر الفلسفى المادى لمصالحها الحيوية) ، ص ١٥٩ أليس هذا من مفاخر الثورية التقدمية ، ومن دعاويها ؟

وكيف نزعم إمكانية الصراع الطبقى فى العالم العربى (لو أن التنين الاستعمارى الرأسمالى الأوربى مَد كُلاّباته ، بالتعاون مع الإقطاع الداخلى ، للإحاطة بالبورجوازية الوليدة التعسية ، ولتفريغها من آفاقها التقدمية الممكنة) ص ١٠٩ ، مع أن الوجود الاستعمارى كان من أهم عوامل الثورة فى مصر والعراق والجزائر ، وهى ثورات نادت بالاشتراكية ، وسعت إلى تحقيقها ؟

ثم إن ما يفعله الدب الاستعمارى الاشتراكى فى دول أفريقيا وآسيا وأمريكا

اللاتينية ، وفى أوربا الشرقية أيضًا ، لا يكاد يختلف فى نتائجه عن جرائم التنين .

ألم يصل إلى سمع الدين باعوا أنفسهم للشيطان ما يجرى فى أفغانستان وجنوب اليمن وأثيوبيا وكمبوديا وبولاندا ؟

أليس من الهوان أن نمضى فى مفاضلة بين الدب والتنين ، وبلادنا سلعة يتعاورها هذا مرة وذلك أخرى، ونجد من يصفق لهذا أو لذاك ، ضالين مضللين بشعارات مزيفة ، وحقوقنا ضائعة ، وإنسانيتنا مهدرة ، ولسنا بقادرين على أن نكون للدنيا أو للدين ،لأننا نفرق بينهما أو يفرق الاستعماريون بينهما ، لينفذوا بسمومهم ، من خلال القروح والبثور التى تصيب أرواحنا وعقولنا وأجسامنا ؟

كيف يقع فى وهم عاقل أن (مسألة تجاوز التخلف الشامل فى هذا الوطن لم يعد طرحها ممكنا فى إطار الثورة البورجوازية الصناعية) ، لأن (الأيديولوجية الاشتراكية العلمية الوريثة الشرعية لكل الجوانب الإيجابية التقدمية) ؟ ص ١٦٠/ ٩٦١ .

لماذا لا يقارن السيد الدكتور بين ما صار إليه حال كل من ألمانيا الاتحادية وألمانيا الديمقراطية ، وهما شعب واحد ، خرج من الحرب منهار الاقتصاد ، مخرب البلاد ، ممزق الوطن والمواطنين ،فإذا القسم الذى ينجو من مخالب الدب يعجل بالبناء ، وينافس من ألحقوا به الهزيمة فى كل ميادين الإنتاج ، فى حين ظل القسم الآخر يرسف فى قيود الممنوعات والمحرمات ، يتطلع أبناؤه التعساء إلى يوم الخلاص ؟

لقد عشت أربعة أعوام فى عدن ، التى كانت من عوامل الازدهار التجارى بين آسيا وأفريقيا ، إبّان الحكم الاستعمارى الإنجليزى ، وكان أبناء اليمن الجنوبى يضربون فى كل الأرض ، ابتغاء الرزق فيثرون ، ويعودون إلى بلادهم ينبون ويعمرون .

فماذا حدث فى ظل الاستعمار الروسى ؟

كان أول ما فعله الروس – كما حدث فى مصر – أن استولو على الذهب فى محال بيعه ، ونقلوه إلى بلادهم ، مما أدى إلى إصدار قانون عدم بيع الذهب لغير أبناء اليمن ، ولكن (بعد خراب مالطة) !

توقّف الميناء ، أوكاد ، وأصبحت مئات المحال التجارية مغلقة ، وانتقلت التوكيلات التجارية إلى مواطن أخرى .

خليج عدن المشهور بثرواته السمكية أصبح مقصورًا على الأسطول الروسى والأسطول اليابانى ، مقابل بعض المعلبات وأجهزة التكييف وعربات رجال الحزب .

الإنتاج الزراعى الذى كان يملأ الأسواق حتى الليل ،لم يعد يكفى طوابير الواقفين على أبواب أسواق الحكومة ، ومن لا يحصل على حاجته قبل العاشرة صباحًا فعليه أن يحلم بالغد . . ولا يرجع السبب إلى ازدياد عدد السكان ، لأن الحقيقة المرة تؤكد أن أكثر من نصف الشعب اليمنى فى الجنوب قد هاجر ، قبل أن يُحكم الحزب الشيوعى قبضته ، ومازال تهريب المهاجرين من عوامل إثراء سكان الحدود .

كان فى عدن وحدها – إبّان الحكم الإنجليزى – أكثر من عشر صحف ، فلم يعد بها إلاّ صحيفة أكتوبر اليومية ، وصحيفة الثورة الأسبوعية ، وتكاد الصحيفتان الهزيلتان تقتصران على بيانات الحزب .

أقيم فى اليمن الجنوبى مصنع للنسيج ، وآخر لتعليب الطماطم ، وثالث لتعليب الأسماك ، ورابع للدخان والكبريت ، والمصانع الثلاثة الأولى تنعى من بناها ، بسبب ما تحققه من خسائر، والمصنع الوحيد الذى يحقق ربحًا هو مصنع الدخان، لأن أكثر من يعيش على أرض الجنوب اليمنى ، من رجال ونساء وصبية يشربون الدخان والبيرة ويمضغون القات ولا يكاد الرجل يعود على بيته بأكثر من ربع دخله ، والباقى ينفق على مجالس القات ، التى حددت لها الدولة أيام الجمع

والإجازات ، واليوم السابق على الجمع والإجازات ، فازدادت شراهة الناس إلى هذا الوباء الذى يقتل النفوس ويستهلك الأموال . .

يُشرف الروس على الجيش اليمنى، ويسيطرون على جزيرة سوقطرة، بحيث لا يدخلها يمنى إلا بتصريح خاص ، ويشرف الألمان الشرقيون على أجهزة الأمن الداخلى ، والصينيون والكوريون والكوبيون يتسللون إلى الأجهزة الأخرى .

نسبة تعليم البنات فى الجامعة إلى البنين تصل إلى ثمانين فى المائة ، لأن الشبان يجندون بعد (الثانوية) ، فينقطع ما بينهم وبين التعليم ، أو يهربون خارج الحدود ، وينقطع ما بينهم وبين الوطن . . وفى الغد القريب تصبح أجهزة الدولة فى أيدى النساء (! !)

هذه صورة مصغرة عن البلد الاشتراكى الذى تسير عجلة الحياة فيه بمنح الكويت والإمارات العربية وليبيا ، وللأسف ، أكثر من نصف هذه المنح يمتصّه خبراء الروس والألمان الشرقيين .

فانظر إلى أى مدى صارت عروس الموانئ تمدّ يدها إلى (الرأسمالية) العربية ، لتنفق على عشاقها (الوارثين الشرعيين لكل الجوانب الإيجابية التقدمية) ! !

وإذا كان المثل العربى يقول : رمتنى بدائها وانسلت ، فإن هذا الوباء الشيوعى لا يسهل أن يغادر ضحاياه ، وإن أرمّت وبليت .

ومع هذا يذكر الدكتور (أن التقدم العاصف فى المجتمعات الرأسمالية الاستعمارية هو بالأصل تقدم فى الجانب « التكنولوجى » ، وفى العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، أما الجانب الاجتماعى « الإنسانى » ، والعلوم الإنسانية ، فيعانى من أزمة عميقة شاملة ، لا يمكن الخروج منها ضمن الحالة الراهنة فى تلك البلدان ، وذلك لعاملين :

١ – التطور العلمى والتكنولوجى قد قدم إمكانيات تتيح للسلطة الاستعمارية

القمعية مواجهة المواقف « غير المتوقعة » ، التى تقود إليها جماهير الكادحين بكثير أو قليل من النجاح .

٢ ـ التعقيد الكبير الذى دخل الحياة العامة ، وجعل من الصعوبة بمكان الكشف عن المسئول « المباشر » عن مجموع ما يحدث فى العالم الرأسمالى الاستعمارى) ص ١٦٣ .

فهل يرى (الدكتور) أن (التقدم التكنولوجى العاصف) واكب فى البلدان الاشتراكية (تقدمًا إنسانيًّا) ، وكل يوم تطالعنا الأنباء بمآسى (المنشقين) فى الاتحاد السوفيتى ، وضحايا الثورة الثقافية الماوية ، وضحايا الثورة على الثورة ، للقضاء على أنصار (عصابة الأربعة) فى الصين ؟ لقد شرد السوفيت أكثر من ثلاثة ملايين أفغانستانى ، وضحوا بنصف الشعب فى اليمن الجنوبى ، وبثلث الشعب فى أثيوبيا ، وذهب الملايين ضحية الطغيان الأحمر فى كمبوديا وفيتنام ولاوس وتيلاند والصومال وأرتريا وأنجولا ، ناهيك عما أصاب الشعوب الإسلامية التى ابتلعتها روسيا ، وما أصاب غير الشيوعيين فى المجر وتشيكوسلوفاكيا وبولندا ، فأنّى حدث هذا التقدم الإنسانى ياترى ؟

* * *

وكما يحدث أن (البغىّ) تتفنن فى اتهام الأخريات ، وتتلذذ باختلاق القصص والأراجيف ، وتجدّ فى ترويج دعاويها وافتراءاتها ، كذلك يفعل أصحاب الكلمة (الحمراء) مع أن الحق بيّن ، والباطل بيّن ، وليس ثمة اشتباه .

فهو يرى ، أو يردد ، (أن قضية الثورة مسألة معلقة وغيرواردة فى المجتمع الرأسمالى الاستعمارى المتقدم تكنولوجيًّا علميًّا . والإشكالية البدائية تتأتى من كون الطبقة الرأسمالية ترى فى انسداد آفاق التطور المستقبلى أمامها هى ، انسدادًا لآفاق التطور أمام الإنسانية جمعاء . . فهى تقاتل الجميع ، لكى يسقطوا وتبقى هى وحدها) ص ١٦٦ / ١٦٧ وكأن الاشتراكية الدولية لا تفعل هذا ! !.

وهو يرى ، أو يردد (أن ألبير كامو وجان بول سارتر أصبحا من آباء الثقافة المكافحة من أجل « الحرية » ولكن عبر « القرف » والتقزز » و «التمزق » . . لقد أصبحت الحرية تكمن فى التأكيد على « عدم جدوى » ، وبالتالى فى تقبل « الموت » بطواعية ، عن طريق « الانتحار ») ص ١٧٤ وذلك لأن الوجودية نشأت (فى العصر اليائس بعد الحرب العالمية الأولى ، مع كل شعور عدم الضمان الذى استبد آن ذاك بالإنسان ، وهى تحمل بذاتها بوضوح آثار كل هذه الهزات المخيفة) ص ١٧٠ .

فإذا كانت الوجودية ترجع إلى (نتائج التصدع التاريخى الشامل لكل عالمنا الفكرى حتى الآن) ص ١٧٠ . فقد صدقت فى التعبير عن المرحلة التى ظهرت فيها ، وكل مذهب جديد رهن بظروف جديدة ، لا تلبث أن تتغير ، ولذلك أكد سارتر (أن كل ماكتبه سابقًا ما هو إلا « بناية كسيحة » لا تشكل بالنسبة إليه المجد الحقيقى ، وما هى بالتالى إلا جنون أو بؤس فكرى) ص ١٧٥ .

ومع هذا ، فالوجودية لا تخرج عن كونها فكرًا تأمليًا مأساويًا ، أو قصيدة رثاء لهذا العالم الممتحن ، ولا مجال لمقارنتها بالفكر الاشتراكى الذى يضع حلولا لمشكلات اقتصادية فى الدرجة الأولى .

وهو ينكر على جارودى (أن يقول بأن مجتمعا طبقيًا ، أى غير متجانس اجتماعيًا ، يستطيع أن يتبنى التعدد الفلسفى) ، مع أن كاتبنا يقول (بوجود تعدد فلسفى فى إطار منظمة سياسة ثورية ، تمثل الطبقة الاجتماعية الأكثر تقدمية فى التاريخ وهى الطبقة العاملة) ص ١٩٧ ، وذلك لأنه وأمثاله لا يؤمنون بالتعايش السلمى مع المذاهب أو المنظمات الأخرى ، لأنهم حريصون على أن يكونوا هم أصحاب البوق الواحد والحزب الواحد ، وليس وراءهم إلا الطوفان . .

وهو يرى أن (الممارسة السياسية الثورية المعبأة بالفكر الماركسى الثورى هى الجديرة بنزع البرقع الخادع عن وجه هذا الطرح الجارودى الهجين) ص ٢٠ مع أن

هذا (الجارودى) كان أحد أعمدة الحزب الشيوعى الفرنسى[1] ، لكنه يأخذ بالتسامح الليبرالى الذى (يعمل جاهدًا على رد الفلسفة الماركسية إلى واحد من التيارات العديدة فى العالم الاستعمارى) ص ١٩٨ ، ومن ثم يمكن التقارب أو التعايش ، وهذا نوع من (التحريفية) البغيضة لدى (النصيين) أتباع لينين .

وهو ينكر على ماركوز القول بأن (التقدم العلمى التقنى فى المجتمع الرأسمالى . . يرفع ويثرى الإنتاج بشكل ضخم ، بحيث يخلق رفاهًا اجتماعيًّا اقتصاديًّا عامًّا بين الجماهير ، وبحيث يؤدى هذا الرفاه إلى شل الروح الثورية المقاومة لدى أولئك الجماهير) ، لأن (ذلك الرفاه العام ليس عامًّا فعلا ، بل نسبيًّا إلى حد كبير ، فالملايين الأربعة من العاطلين عن العمل فى الولايات المتحدة الأمريكية وعملية التسريحات العمالية ، منذ سنوات ، فى برلين الغربية وألمانيا الغربية لا يدعان مجالا للشك فى أن رفاهًا عامًّا هو واقع نسبى جدًّا فى المجتمع الرأسمالى الحديث . . إن الكادح الذى كان دخله السنوى يتراوح مثلا فى حدود الـ ٣٠٠٠ ليرة ، نراه – إذا بقى محتفظًا بمكان عمله – يحصل حاليا على ٣٥٠٠ أو ٤٠٠٠ ليرة سنويًّا ، لكن الدخل السنوى للرأسمالى ، رب عمله ، أخذ بالمقابل يرتفع بشكل أسطورى) ص ٢٠٦/ ٢٠٨ .

وهذا مأخذ لا شك فيه لكنه مائل ، بصورة أو بأخرى ، فى توزيع الدخل بين الكادحين والقياديين فى المجتمع الاشتراكى ، وكلا المجتمعين يموج بالجريمة ، غدْراً وخداعًا وقتلاً وتنكيلاً وحرمانًا من الأمان النفسى ، وهو القيمة الكبرى التى تنشدها الإنسانية فى أى مجتمع ، وعلى أى مستوى .

وهو يأخذ على المجتمع الرأسمالى أن السائدين فيه (اجتماعيًّا واقتصاديًّا وأيديولوجيًّا – كانوا يحاولون دائمًا جَعْل أيديولوجيتهم الأيديولوجية الوحيدة فى

(١) أسلم الفيلسوف روجيه جارودى ، ويرجى بإسلامه خير كثير .

مجتمعهم ، وإثارة وتغذية اليقين بأنها أيديولوجية الإنسان عمومًا فى كل زمن وبقعة ، هنا بالضبط يتبين زيف أيديولوجيتهم) ص ٢١٥ ، مع أن المجتمع الرأسمالى يقوم على تعدد الأحزاب ، ويعترف بحكومة الظل للحزب المعارض ، ويسمح بتشكيل حزب شيوعى ، له صحفه وممثلوه فى المؤسسات الديمقراطية المختلفة ، على حين يقوم المجتمع الاشتراكى على الحزب الواحد وكل شىء لهذا الحزب الواحد (الطبقة الوحيدة التى تستطيع ترسيخ سيطرتها مكان طبقة أخرى سائدة من خلال عملية واعية مخططة) ص ٢٢١ .

* * *

ويمضى السيد الدكتور فى إعادة تشكيل هذه الدعاوى من خلال قراءاته المتنوعة ، مركزًا على الجانب السياسى مما يخرج على نطاق الخط الذى رسمناه لهذا التناول عن (التراث) .